

## نشأة علم البلاغة. التكملة:

نشأت البلاغة في القرن الثالث الهجري؛ فلم تكن علماً مستقلاً؛ بل مرتبطة بالعلوم الأخرى، فقد كانت مجرد أفكار متناثرة وملاحظات بسيطة لا تتعدى عن كونها مجرد مهارة تساعد الإنسان على الوصول إلى نفس السامع بطريقة توضح ذكاء المتكلم، وأول من كتب عنها آنذاك كان "أبو عبيدة معمر بن المثنى".

لم تستقر بوصفها علماً قائماً بحد ذاته إلا في القرن السابع الهجري؛ إذ استقر هذا العلم على يدي "أبي يعقوب السكاكي" ومدرسته؛ لذا شمل هذا الاستقرار البلاغة وعلومها الأساسية "علم البيان، وعلم المعاني، وعلم البديع"، وكان التطور الذي حدث لها في تلك الفترة هو استحداث فنون منبثقة عن تلك العلوم الأساسية الثلاثة لا سيما علم البديع.

لا بد هنا من الإشارة إلى الاختلاف المتعلق بوضع ومؤسس علم البلاغة؛ فالشريحة الكبرى تقول إنه "أبو يعقوب السكاكي"، وبعضهم يقول إنه "الجاحظ" في كتابه "البيان والتبيين"، كما يوجد رأي ثالث يقول إنه "الجرجاني" بكتابه "دلائل الإعجاز وأساس البلاغة".

تتفق معظم المراجع والأدبيات على تقسيم نشأة علم البلاغة إلى ثلاث مراحل أساسية تتداخل فيما بينها، ولا يمكن تمييز الحد الفاصل بينها، وهذه المراحل هي:

المرحلة الأولى مرحلة النشأة والنمو "النشأة على هامش العلوم الأخرى":

كانت البلاغة منتشرة بين طيات العلوم التي سبقتها على شكل أفكار بسيطة فقط غير قادرة على تبني قضية كاملة، ومن المؤلفات في هذه المرحلة يوجد:

1. كتاب "دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة" لـ "عبد القاهر الجرجاني":

هذا الكتاب ليس مخصصاً للبلاغة؛ وإنما هو كتاب في تفسير ألفاظ القرآن الكريم، كما تتضمن بعض الملاحظات والمسائل البلاغية دون ذكر أسمائها بشكل صريح، مثل الإشارة إلى "التقديم والتأخير، والالتفات، والتشبيه، والمجاز العقلي" وغير ذلك الكثير.

2. كتاب "معاني القرآن" لـ "أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء":

يتضمن هذا الكتاب شرح ألفاظ القرآن الكريم وبعض الأساليب البيانية والتراكيب النحوية، وقد أشار ضمنه إلى بعض أساليب البلاغة مثل "الإيجاز، والإطناب، والتقديم والتأخير، والتشبيه وأركانه" لكن دون تسميات صريحة لها.

### 3. كتاب "البيان والتبيين" لـ "الجاحظ":

تناول فيه الجاحظ عدة مسائل بلاغية بالاعتماد على مختارات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية والأمثال العربية مثل "البلاغة، والخطابة".

### 4. كتاب "مشكل القرآن" لـ "أبو محمد عبد الله بن قتيبة الدينوري":

يُعدُّ "الدينوري" من تلامذة "الجاحظ"، وقد تحدث في كتابه هذا عن إعجاز القرآن وقوة البيان والاستعارة والكناية والقلب والاختصار والزيادة في الكلام.

### 5. كتاب "الكامل في اللغة والأدب" لـ "أبو العباس محمد بن يزيد المبرد":

قسَّم فيه التشبيه إلى أربعة أنواع "تشبيه مفرط، وتشبيه مصيب، وتشبيه مقارب، وتشبيه بعيد".

### 6. كتاب "كتاب البديع" لـ "عبد الله بن المعتز":

كان هذا الكتاب خطوة هامة في تطور علم البلاغة وتقدمه، وقد قام المعتز بتقسيم الكتاب إلى قسمين أساسيين؛ الأول "البديع" الذي حصره في خمسة فنون وهي: "الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، والمذهب الكلامي، ورد إعجاز القرآن على ما تقدمها"، والقسم الثاني "محاسن الكلام والشعر" وقد حصرها في ثلاثة عشر فناً منها "الكناية والتشبيه".

لقد ظهرت كتب عديدة في هذه المدة تناولت بين أوراقها أساليب بلاغية مثل كتاب "نقد الشعر" لـ "قدامة بن جعفر"، وكتاب "الموازنة بين الطائيين" لـ "أبي القاسم الحسن بن بشر الأمدي"، وكتاب "الوساطة بين المتنبي وخصومه" للقاضي "علي بن عبد العزيز الجرجاني"، وكتاب "النكت في إعجاز القرآن" لـ "أبي الحسن الرماني المعتزلي"، وكتاب "سر الفصاحة" لـ "ابن سنان الخفاجي"، وكتاب "العمدة" لـ "ابن رشيق القيرواني".

### المرحلة الثانية مرحلة النضج "التكامل المشترك":

في هذه المرحلة أخذت تلك الأفكار المنتشرة بين العلوم الأخرى تنضج وتنمو في تلك العلوم لتحجز لنفسها فصلاً كاملاً، كما جاء الإمام "عبد القاهر الجرجاني" ذو المكانة الكبيرة في علم البلاغة في كتابه "دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة" الذي وضع من خلاله نظريتي علم المعاني وعلم البيان، والكثيرون يَعدُّونه واضع ومؤسس علم البلاغة، ومن الكتب المؤثرة في هذه المرحلة أيضاً كتاب "الزمخشري" "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل".

### المرحلة الثالثة التقنين والتعقيد "الاستقرار والتفرد":

في هذه المرحلة أصبحت البلاغة علماً مستقلاً بذاته لها ملفاتها وكتبها الخاصة؛ إذ استقلت عن باقي العلوم التي لطالما ارتبطت بها وتحررت منها، وأصبحت معالمها وسماتها واضحة، وأبرز من جاء في هذه المرحلة كان "أبا يعقوب يوسف السكاكي" في كتابه "مفتاح العلوم" الذي احتوى على علم المعاني وعلم البيان وغيرها من أساسيات البلاغة والفصاحة والمحسنات اللفظية والمعنوية، وقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة؛ إذ عكف الكثيرون على شرحه وتلخيصه.